

الفصل: الرابع

وحدة: تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء إلى غاية القرن 19

الأستاذة: حميد الفاتحي

المحاضرة رقم: 4

السنة الجامعية

2021-2020

جامعة ابن طفيل	السنة الجامعية: 2020-2021
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية	وحدة: تاريخ المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء
شعبة التاريخ والحضارة	الأستاذ: حميد الفاتحي
الفصل الرابع	المحاضرة رقم: 4

ثالثا: العلاقات السياسية بين المغرب وبلاد السودان

تميزت العلاقات السياسية بين بلاد المغرب وبلاد السودان فيما بين القرنين الثاني والرابع للهجرة / الثامن والعاشر الميلادي بعقد بعض معاهدات الهدنة مع الجهات التي وصلتها جيوش الفاتحين المسلمين على مشارف الصحراء وبلاد السودان. وتعتبر المرحلة الفاصلة بين بداية الفتوحات الإسلامية وقيام الإمارات المستقلة مرحلة استكشاف متبادل بين الضفتين، انتهى بقيام علاقات سياسية واقتصادية واجتماعية تَمَتَّتْ على مر القرون اللاحقة. ونظرا لمتاخمة الإباضية للصحراء من جهة الجنوب ووجود سلسلة من المدن على مشارف الهكغار وكوار مثل غدامس وفزان وزويلة، فإنهم كانوا كنظرائهم في سجلماسة مؤهلين لربط علاقات مع السودان¹. وتميزت العلاقات بين الضفتين في هذه المرحلة بسمتين أساسيتين:

أولهما: وجود الحوافز السياسية والاقتصادية لدى كل الأطراف للتواصل فيما بينهما.

ثانيهما: اختلاف هذا العصر عن مرحلة الفتح اختلافا جوهريا، بالتخلي عن الأسلوب العسكري، لصالح الصلات السلمية؛ وهي صلات اتخذت من الهجرات البشرية، والمبادلات التجارية، وتبادل السفارات، أداة لها².

وفي القرن الخامس الهجري، وبحكم أن أودغشت كانت تحت سلطة ملك غانة الأرواحي³، وبما أنها كانت معقلا للخوارج، فإن المرابطين تعاملوا معها بقسوة؛ إذ قتلوا أو استرققوا سكانها وقيل بأنهم خربوها، وعلى أية حال ألحق

¹ - عبد العزيز العلوي، تأثيرات "بلاد المغرب" على حضارة السودان الغربي في العصر الوسيط: الدين والفكر، أطروحة لنيل الدكتوراه الدولة في الآداب، تخصص تاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس، فاس، السنة الجامعية، 1998-1999م، ج1، ص5-6.

² - نفسه، ج1، صص122-124.

استيلاء المرابطين ضررا بالمدينة وتم التخلي عنها لصالح مدينة ولاتة. وكان تملك أودغشت إيدانا ببدء مرحلة من التوسع المرابطي في السودان الغربي⁴. وبعد أن أوغل أبو بكر بن عمر شمالا توقف على مشارف موضع بناء مدينة مراكش تاركا ابن عمه يوسف بن تاشفين في القيادة الشمالية، وعاد هو إلى الصحراء ”وجمع جيوشا كثيرة، وخرج إلى غزو بلاد السودان، فجاهدهم حتى فتح بلادهم مسيرة ثلاثة أشهر“⁵.

ويظهر أن العلاقات لم تكن على ما يرام في العصر الموحد في أواخر القرن 6هـ / 12م؛ فيعقوب المنصور رفض هدية من السودان هي عبارة عن فيل. ومع أن الهدية ربما كانت من تجار السودان بعيدا عن الرسميات، فإن الرفض لم يكن سوى رد فعل ضد بعض مواقف حكام السودان؛ وهكذا فالأمير أبو الربيع سليمان والي سجلماسة وأقاليمها وَجَّهَ مذكرة إلى ملك غانا يستنكر العراقيل التي توضع أمام صغار التجار المتجهين من المغرب، ويذكره بأن اختلاف الدين بين الجانبين لا يمنع من حسن التعايش، وأن الجانب المغربي بإمكانه أن يعامل تجار السودان بالمغرب بالمثل، لكنه لا يستصوب هذا الاتجاه⁶.

وشهد القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي تطورات جديدة، فمن جهة، حرصت بعض مراكز القوى الشعبية بسوس على أن تحل محل الدولة الموحدية في مراقبة طريق غانا عبر السوس الأقصى، ومن جهة ثانية بدأ المغرب ينظر إلى العلاقات مع السودان نظرة فيها انفتاح دبلوماسي وفكري اتسع أكثر فأكثر خلال القرن التالي. وهكذا نشأت إمارة بني يدر بسوس، واستقدمت مجموعات بني معقل الحسانيين الذين كانوا يستوطنون حوض

³ - الأرواحية تعني الاعتقاد في الأرواح والقوى الحيوية المحركة للكائنات الحية والأشياء وعناصر الطبيعة كالصخور والرياح والحيوان وكذلك الجن.

⁴ - العلوي، تأثيرات ”بلاد المغرب“ على حضارة السودان الغربي، ج1، ص201.

⁵ - علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م، ص135.

⁶ - إبراهيم حركات، طبيعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية، مجلة دعوة الحق، العدد 269 ماي - أبريل، 1988 .

(على موقع: <http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/6944> بتاريخ:

ملوية، وذلك بحجة وجود علاقة دم بين مؤسس هذه الإمارة وبني معقل. وابتداءً من هذه الفترة، وبالرغم من حرص الحكومة المركزية على ضمان وحدة المغرب في مفهومه الواسع نجد الصحراء مع تبعيتها بالولاء والبيعة للسلطة المغربية أصبحت وسيطا رسميا للمغرب، لدى أقطار السودان، وذلك عن طريق كل من معقل ومسوفة؛ فمنهم الأدلاء، والموفدون الرسميون المرافقون للوفود المتوجهة إلى أقطار السودان طول المدة الزمنية الفاصلة بين القرن السابع والثالث عشر الهجريين / الثالث عشر والتاسع عشر الميلاديين⁷.

ويمثل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي أوج نمو العلاقات بين السودان الغربي والمغرب في العصر الوسيط، بل إن هذه الحقيقة تشمل باقي الشمال الإفريقي في تبادله مع أقطار السودان، وعندما تحكم المغرب في محور تلمسان مع السودان في عهد أبي الحسن المريني أحكم سلطان مالي منسا موسى صلته بالعاهل المغربي وأظهر ارتياحه لسيط السلطة المغربية نفوذها على مملكة بني عبدا الواد. وتعبيرا عن حسن مشاعره، بعث أبو الحسن بهدايا وتحف إلى معاصره المالي الذي كان ضمن وفده ترجمان صنهاجي، كما أن السلطان المغربي بعث وفدا لهذا الغرض، وأمر بعض بني معقل من سكان الصحراء باصطحاب الجميع إلى ملك مالي، وأثناء ذلك توفي منسا موسى فخلفه منسا سليمان وهلك هو أيضا بعد أن أعد هدايا، سودانية إلى نظيرة المغربي، فألحق بها خلفه منسا حاطه زرافة، واستقبلها حينئذ أبو سالم في عرض رسمي وشعبي وكبير. وقد فصل ابن خلدون تبادل الوفود والهدايا بين المغرب ومالي⁸. وكان ابن بطوطة أبرز ممثل دبلوماسية في هذا العصر عن البلاط المغربي، ووصف بدقة مشاهداته عبر الطريق الصحراوي وخلال إقامته بمالي، وسجل حسن التعايش بين أهل هذه البلاد ومن يخالطهم من المغاربة⁹.

⁷ - إبراهيم حركات، طبيعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية.

⁸ - عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط3، 1427هـ / 2006م، ج6، صص264-265.

⁹ - إبراهيم حركات، طبيعة العلاقات.

ومنذ ظهور السعديين وقيام دولتهم، وبعد انسداد الأفق أمام المغرب في حوض البحر المتوسط وسعي العثمانيين إلى تطويقه جنوباً، حاول السعديون البحث عن موارد ثابتة تساعد على تطوير اقتصاد دولتهم بالبحث جنوباً عن موارد كمعادن الملح بتغازي كما أحكموا قبضتهم على أقاليم توات وتيكورارين في طريق بلاد السودان¹⁰. وفي مطلع سنة 999هـ / 1590م، أطلق أحمد المنصور السعدي حملة السودان أملاً في السيطرة على منابع تجارة الذهب والرقيق واستثمار أرض نهر النيجر في المشاريع الزراعية¹¹، ويقول الفشتالي إن أرض السودان تتميز بـ: "اتساع خطة القدر والاستثثار بمعادن التبر وأصناف الرقيق"¹²، كما أنها تشتمل على "المرافق الجمّة التي جاد بها كرم التربة وخصب البقعة، فقد طم بما بحر الحبوب والأقوات والأدم"¹³. ويفيدنا مصدر آخر برغبة أحمد المنصور في تسلّم "خراج معدن تَعَاَزَ وأنه أولى به... لأنه الحاجز والمانع لهم من الكفرة النصرانيين"¹⁴، كما أنه يؤكد على حالة التناقض الداخلي الذي عصف ببلاط أمير مملكة سنغاي الأسكيا إسحاق بن داود، وذلك أن "ولد كرنفل" أحد خُدّام الأمراء فر هارباً إلى مراکش من بطش الأسكيا، وأخذ يُحسِّنُ للسلطان السعدي غزو السودان، ودلَّه على عورتها: "وبما كانوا عليه من الأحوال الذميمة والطبائع الرذيلة مع ضعف القوة"¹⁵.

¹⁰ - عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 1421هـ / 2001م، صص 147-151.

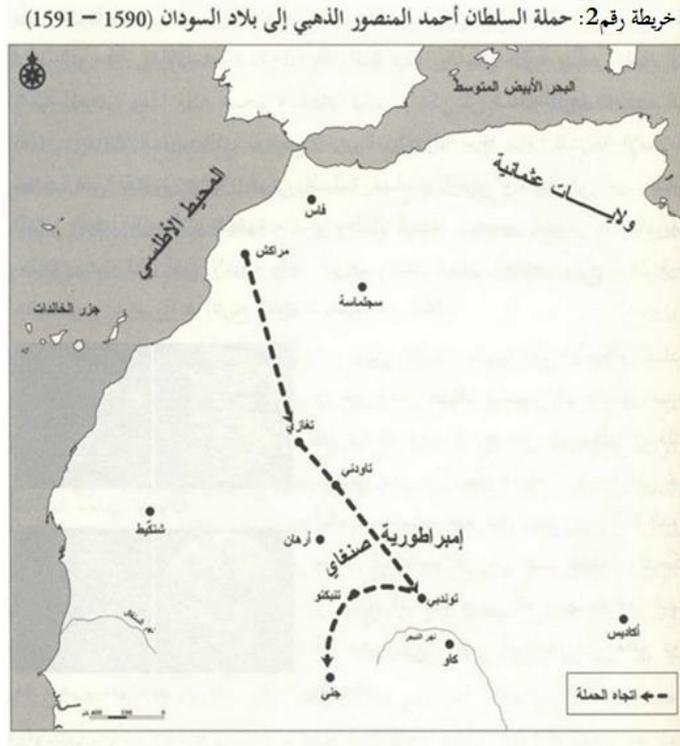
¹¹ - نفسه، صص 171-173.

¹² - الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافية، الرباط، د.ت، صص 165.

¹³ - نفسه، صص 118.

¹⁴ - عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، وقف على طبعه هوداس، المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية، باريس، 1981م، صص 137.

¹⁵ - نفسه، الصفحة نفسها.



المصدر: تاريخ المغرب: تجميع وتركيب، ص 389.

ولا شك أن تتبع تحركات الجيش المغربي في بلاد السودان يتيح لنا معرفة الأقاليم التي أصبحت تحت السلطة المغربية والتي تكاد تطابق الحدود الكبرى لمملكة السونغاوي حيث انبنت الإدارة المغربية على رابطة البيعة للسلطان السعدي وتأسست إدارة المخزن والمشور والجيش، والقضاء والبريد، والإدارة المالية، وإدارة الأقاليم والجهات. أما السنغال غربا والكانم برنو شرقا، فارتبطتا برباط البيعة مع السلطان السعدي دون إدارة مباشرة¹⁶.

وفي بداية الدولة العلوية، وبعد أن تمكن السلطان المولى الرشيد من القضاء على زاوية تازروالت سنة 1081هـ / 1670م في الجنوب، استطاع أن يضع يده على أهم الطرق الرابطة بين المغرب وبلاد السودان. وفي السنة نفسها أرسل مبعوثا إلى تنبكتو التي أعلنت بيعتها للعلويين. غير أن الرشيد اقتصر على أخذ البيعة من أهل السودان دون

¹⁶ - محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، 1402هـ / 1982م، صص 147-149.

التدخل المباشر، وذلك في إطار سياسة جديدة استهدفت التركيز أكثر على بلاد شنقيط¹⁷، والشيء نفسه تكرر في عهد خلفه السلطان المولى إسماعيل الذي عمل على إعادة توحيد البلاد: "وكانت طاعته قد عمت جميع المغرب إلى تلمسان وجميع الصحراء وتوات وفيكيك وأطراف السودان وعلى تيغاز وسوس الأقصى"¹⁸.

وبالنتيجة، ابتداءً من سنة 1618م، توقف المغرب عن تعيين الباشوات وعن إرسال تعزيزات عسكرية، وبقيت هناك أعداد من جيش المنصور وأبنائهم عرفوا بالأراما (أي الرماة)، فنصبوا أنفسهم على تنبكتو وظلوا على هذه الحال إلى غاية القرن الثالث عشر للهجرة / التاسع عشر للميلاد¹⁹.

¹⁷ - Abitbol Michel. Le Maroc et le commerce transsaharien du XVIIe au début du XIXe siècle, In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, n°30, 1980, p.8.

¹⁸ - عبد الكريم بن موسى الريفي، زهر الأكم، تحقيق آسية بنعدادة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992م، ص202.

¹⁹ - م. أبيتبول، نهاية إمبراطورية الصنغاي، ضمن تاريخ إفريقيا العام، المجلد الخامس، إفريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، إشراف ب. أ. أوغوت، منشورات اليونيسكو، لبنان، 1997م، ص350.